29 الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي

نزار العاني
- ❖ سلسلة بحوث علمية (إسلامية علم النفس)، رقم 15.
- ❖ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفرقان للنشر، عمان – الأردن، 1998، [كتاب من 254 صفحة من القطع المتوسط].
- ❖ لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- ❖ مجال البحث (الكتاب): الشخصية الإنسانية/ التراث الإسلامي.

❑ ❑ ❑

يبدأ المؤلف بعرض الصعوبات التي تواجه الباحث في دراسة النفس الإنسانية وتعدد مناهجها ومنظوراتها عبر التأريخ كله، وعندما وصل الأمر إلى العلماء المسلمين كانوا أكثر معاناة من غيرهم بسبب ظهور مصطلحات جديدة في الفكر الإسلامي تتعلق بالنفس الإنسانية أو الشخصية: كالقلب والفؤاد والروح والعقل واللب البصيرة من ناحية، ولأن العالِم المسلم ما كان ليخرج عن نصوص القرآن والسنة في وصف الإنسان وشخصيته أو ما يتعلق بصحته النفسية وأمراض النفس والقلب من ناحية ثانية. مما ألزم علماء وفلاسفة المسلمين أن يخرجوا بإطار نظري جديد لرسم معالم منهجية النفس والشخصية الإنسانية.

❋ يحدد المؤلف منهجية كتابه لدراسة الشخصية الإنسانية في التراث أو الفكر الإسلامي من خلال مداخل أربعة:

- تحديد المصطلحات والمفاهيم الأساس المتعلقة بالنفس الإنسانية للانطلاق منها إلى مفهوم الشخصية الإنسانية في المفهوم الإسلامي ومدلولاته في التراث الإسلامي واستخلاص اتجاهات محددة لمفهوم الشخصية الإسلامية منها.
- تحديد ودراسة محددات الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي من خلال دراسة الفطري والمكتسب من هذه المحددات، وعلاقتها بمراحل نمو الإنسان، والخصائص والسمات الإنسانية المشتركة والقومية (المجموعية) والمنفردة، والبواعث أو الدوافع الإنسانية.

- وعرض مفاهيم استواء الشخصية وإنحرافها في التراث الإسلامي من خلال دراستهم لصحة النفس والقلب وعللهما والأمراض النفسية والعقلية التي شخصها التراث، والمنهج الإسلامي الوقائي من المرض النفسي والإنحراف، ثم لتربية النفس وترويضها للتسامي نحو المكارم والفضائل.
- محاولة الإجابة عن سؤال مطروح في ميدان أسلمة علم النفس: هل هناك نظرية أو نظريات للشخصية الإنسانية في الفكر الإسلامي؟

* ثم يدخل الكتاب في بابه الأول في مفهوم النفس الإنسانية في التراث الإسلامي (مستهلاً هذا المفهوم بالتراث اليوناني وفلاسفته) ليذكر أنه كانت للعلماء المسلمين ثلاثة اتجاهات:

منهم من قال بأزلية النفس وقدمها، ومنهم من رآها مخلوقة حادثة، ومنهم من لم يصدر أي حكم أو تبيان أو رأي لإعتقاده أن النفس هي الروح والروح من أمر الله.

* بعدها يدخل المؤلف في طبيعة النفس الإنسانية في التراث الإسلامي وعلاقتها بالجسم والروح حيث يستعرض الخلافات الكبيرة بين علمائه في هذا المنظور (النّظام، الجبائي، بن كيسان، المثنويون، أبو الهذيل، الباقلاني، المشاؤون، ابن القيم، ابن مسكويه، مقاتل ابن سليمان، ابن سينا، ابن ماجه، ابن حزم) ويفصِّل فيه ليخلص إلى أن الفلسفة اليونانية أثرت بشكل أو بآخر في التعريفات والمصطلحات الأساس لدراسة النفس الإنسانية في التراث الإسلامي، ولكنها - أي مفهوم النفس - أوقف على المعايير الإسلامية والنصوص القرآنية والنبوية، وأن التراث الإسلامي قد أضاف مصطلحات جديدة للإطار النظري أو الفلسفي الذي يدرس النفس البشرية.

* ثم يستعرض الكتاب مطولاً مفاهيم القلب والعقل والدماغ في التراث الإسلامي ويفصِّل فيه (الغزالي، الماوردي، النيسابوري، الفارابي، المتصوفة، الترمذي، الإبشيهي، ابن القيم، ابن ظفر الصقلي) ويقدم المؤلف مخططات (أشكال) للدماغ عند الغزالي وابن عربي والشيرازي وابن سينا وإخوان الصفا

مستقاة من كتاباتهم وطروحاتهم ليسِّر للقارئ الخلاصة العامة لهذه الطروحات.

* أما مفهوم الشخصية الإنسانية ومدلولاته في التراث الإسلامي، فيذكر المؤلف أن المصطلح محدث جديد، وحتى مصطلح (الشخص) لم يذكر في التراث قبل إخوان الصفا وابن سينا. ثم يستعرض المعاني اللغوية المعجمية قديمها وحديثها لهذا المصطلح، ثم يعرض الكتاب لمصطلحات أخرى ذات علاقة: الفرد، الذات، امرؤ، إنسان الذي يدخل فيه (أي الإنسان) كل ما يتعلق بخلقه وجبلّته ونشوئه وسلوكه وخُلُقه وتعامله ووجدانه وشعوره وخياله وفكره ومعتقده.

ويرى المؤلف أن هذه النظرة الشمولية (للإنسان) لم تكن عند غالب أو كل علماء التراث سوى الشيخ الرئيس ابن سينا والإمام الغزالي اللذين درسا الإنسان من مجمل محاوره ومحدداته. إلا أن مجموع ما كتب في التراث الإسلامي يرسم مخططاً أولياً لمعالم الشخصية الإسلامية على وجه التحديد وليس الشخصية الإنسانية بمفهومها العام.

ثم يستخلص المؤلف بعدها اتجاهين لمفهوم الشخصية من وجهة نظر إسلامية

- الشخصية الوسطية (المتوازنة)
- الشخصية الكلية (أو الكلية الشخصية)

ويفيض الكتاب في تفصيل هذين الاتجاهين ومدلولاتهما القرآنية والتراثية

* ويدخل الباب الثاني من الكتاب في محددات الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي:

- أول المحددات هو الفطري والمكتسب فيها، حيث يبدأ المؤلف بعرض الأحاديث النبوية في هذا الباب ثم النقولات التراثية شعراً أولاً، ثم ليدخل في مفهوم الخلق والمخلوق في التراث (الجاحظ، الأصبهاني، إخوان الصفا، الغزالي، ابن أبي الربيع، الفارابي، فخر الدين الرازي) ثم النفس الإنسانية وقواها التي صنفت إلى ثلاث وأربع وخمس

(الكرماني الفاطمي، ابن القيم، الفارابي، التوحيدي، ابن مسكويه، ابن الهيثم، ابن حزم، الشيرازي، الغزالي، ابن الجوزي، ابن عربي، النراقي، يحيى بن عدي، المحاسبي) والشروحات التي دعت كلاً منهم لهذا التقسيم، مع ذكر المرجعية الفلسفية اليونانية التي كان لها أثر واضح في الكثير من هذه التصنيفات.

- المحدد الثاني الذي تناوله الكتاب هو اتجاهات تصنيف الشخصية وسماتها المشتركة في التراث الإسلامي

• فمن حيث الاتجاهات استعرض الكتاب الاتجاه العقائدي (مؤمن، منافق، كافر) قرآنياً ونبوياً وتراثياً ليخلص إلى أن التصنيف العقائدي للشخصية (إسلامياً) ينم عن حالة مؤقتة غير دائمة بالضرورة، وأن السمات أو الصفات الشخصية معلقة أو تابعة للموقف العقائدي أو الإيماني للإنسان.

وهذا مفهوم جديد لا يمتلكه علم النفس الحديث وإن امتلك بعضها فليس بهذه الرؤية العِلّية أو السببية.

• كما استعرض الكتاب الاتجاه الثاني وهو الاتجاه الفلسفي لتصنيف الشخصية (الجاحظ، الذهبي، ابن سينا، الرازي).

* ثم يستعرض الكتاب بعدها السمات والخصائص المشتركة للشخصية الإنسانية مبتدئاً بالمفهوم النفسي المعاصر(السمات) رجوعاً إلى التراث الإسلامي (ابن المقفع، الفارابي، المحاسبي، ابن أبي الربيع، الشيرازي، ابن حزم، ابن القيم، النراقي، ابن شطا الدمياطي، أبو بكر الأصامي، ابن عربي، يحيى بن عدي، ابن مسكويه، الغزالي) ليستخلص المؤلف ثانية أشكالاً ومخططات للشبكة التوزيعية للسمات والخصائص الإنسانية التي عرضها الغزالي (في ميزان العمل)، أبو القاسم المالقي، الإبشيهي.

ثم يخلص المؤلف من خلال هذا العرض الطويل المفصَّل والقوائم التصنيفية لكل منهم، إلى أنه برغم الاختلاف الكبير في المسمّيات والسمات والخصائص إلا أنها يمكن أن تصنف عموماً في إطار الفضائل والرذائل، أو

محاسن الأخلاق ومساوئها في إطار المرجعية الإسلامية والثروة الضخمة من مفردات اللغة العربية (ثم يجرد الكتاب التكرارات التي حصلت عليها كل سمة في هذا الإستعراض الموروث لها).

ومن السمات الإنسانية العامة إلى السمات القومية (المجموعية) ثم السمات الفردية قرآنياً ونبوياً أولاً، ليدخل بعدها في نقولات وراثية مطولة (الأصبهاني، ابن سينا، الفارابي، الجاحظ، البلخي، ابن القيم، ابن المقفع، الهرثمي، الخرائطي، التوحيدي، الماوردي، المالقي).

- أما المحدد الثالث للشخصية الذي يستعرضه الكتاب فهو علاقة الشخصية بأطوار (لم يستخدم المؤلف مصطلح مراحل) النمو الإنساني ليخلص إلى تصنيف جديد لمراحل النمو (معتمداً على القرآن والسنة والتراث).
  - الحياة الأولى:

    الطور الأول: طور ما قبل الولادة: الماء المهين، النطفة، العلقة، مضغة غير مخلقة، مخلقة.

    الطور الثاني: طور ما قبل التكليف: الوليد، الرضيع، الفصيل (الفطيم)، الصبي.

    الطور الثالث: طور ما بعد التكليف: الشباب، الأشُد (الكهولة)، الشيخوخة، الوَهن (أرذل العمر)، الوفاة.
  - الحياة الثانية: حياة البرزخ – من الوفاة حتى البعث.
  - الحياة الثالثة: الحياة الآخرة (الجزاء بالجنة أو النار).

ثم يستعرض النقولات الوراثية المطولة عن أطوار النمو الإنساني ليكتشف إبداعات رائعة جداً في التراث الإسلامي ويمكن اعتبارها معاصرة جداً (لعلم النفس الحديث) آناً واحداً.

- المحدد الرابع في هذا الباب هو أنواع الدوافع وطبيعتها والتي تسمى في التراث (البواعث) الإنسانية ليوضحها نفسياً معاصراً ثم تراثياً، ثم يعرض إلى بواعث الهوى والشهوات والملذات.

* أما الباب الثالث من الكتاب فيتكلم عن مفهوم استواء الشخصية الإنسانية وإنحرافها في التراث الإسلامي حيث يعرض الكتاب:

- صحة النفس والقلب وعللها (الغزالي، ابن سينا، الرازي، ابن مسكويه، ابن القيم، الماوردي، الكلاباذي، البلخي، الذهبي، الأصبهاني، التوحيدي).
- ثم صحة الجسم من الأمراض النفسية وانحرافات الشخصية (البلخي، ابن الجوزي، ابن أبي أصيبعة، ابن القيم، ابن أبي حجلة، الرازي، ابن مسكويه، النراقي، ابن سينا). ليجد المؤلف أن التراث الإسلامي أعطى صورة مشرقة ومضيئة عن تقدمهم وإبداعهم في تشخيص وعلاج ووصف الأسباب والأعراض الكثيرة من الأمراض النفسية مقربة إلى حد كبير لما هي عليه الآن.
- ثم المنهج الوقائي الإسلامي من أعراض الإنحراف النفسي مركزاً على:
  - تحرير الإنسان من عقدة الذنب (الخطأ، التوبة، الإستغفار)
  - تحجيم أثر الضغوط النفسية (الخوف من: الموت، المرض، انقطاع الرزق أو قلته، وقوع مصيبة، فقدان المنصب أو المركز، الخطيئة والشعور بالذنب).

  (الذماري، الكندي، البلخي، ابن حزم، الغزالي، الرازي، ابن القيم، الشعراني، الحسن البصري).
- ثم أخيراً المنهج الإسلامي لتربية النفس وتقويمها (ابن القيم، ابن وهب القرشي، الغزالي، ابن عربي، الأصبهاني، ابن حزم، الشيرازي، التوحيدي، القيرواني، التراث الصوفي، بن منصور الحلاج، ابن مسكويه، الذهبي، المرادي الحضرمي، ابن رشد، القشيري، الجنيد البغدادي والفارابي).

ويخلص الباحث إلى أن التراث ركز على مفهومين في هذا الإطار هما «العادات» و«الإرادة». من ناحية أخرى فإن مفاهيم (التكيف، التوازن، التوافق) الذي تعرفه الصحة النفسية اليوم لا يكون في منظور التراث الإسلامي إلا مع

الله وليس مع المجتمع. لأن المجتمع قد ينحرف بمعظمه، وهنا لا قيمة له ما دام قد انحرف عن السواء المستقيم (هدي الله وشرعه).

* والباب الأخير من الكتاب يتساءل إن كانت هناك نظرية أو عدة نظريات للشخصية عند علماء المسلمين (أو إن كانت هناك نظرية أصلاً). موضحاً - أي المؤلف - أن علم النفس الحديث لم يستطع رسم هذا الإطار بعد أولاً، وأنه -أي المؤلف- لا يريد أن يطوِّع التراث الإسلامي - زماناً ومكاناً وواقعاً - ليقحمه في الأطر النفسية المعاصرة قسراً ثانياً.

ثم يرى المؤلف أنه صعب عليه أن يجد ما يمكن أن نسميه نظرية في الشخصية الإنسانية عند العلماء المسلمين بمفهوم الشمولية أو الإحاطة بكل المحددات أولاً، ولا نظرة وَحدية متكاملة لهذا المصطلح ثانياً، بالرغم من أن:

- ابن جزار القيرواني رسم إطاراً نظرياً متكاملاً لتنشئة الطفل وتربيته وتأديبه (سياسة الصبيان وتدبيرهم).
- وابن قيم الجوزية قدم إطاراً نظرياً شاملاً في محددات أطوار النمو الإنساني (تحفة الودود في أحكام المولود).

إلا أن المسألة تتعلق بالإطار النظري لكل محددات الشخصية وليس في واحد منها.

* ثم يستدرك المؤلف بأن من ذهب لأكثر من محدد واحد للشخصية وبتميز عن الآخرين هما الغزالي وابن سينا. ثم يأتي الكتاب تفصيلاً على الإطار النظري لكل منهما ويوضح كل ذلك بمخططات وأشكال كخلاصات لاحقة لأطريهما النظرية.

* وفي الكشاف والملاحق، جدوَّل المؤلف كشاف الأخلاق الحسنة (الفضائل) وكشاف الأخلاق السيئة (الرذائل) عند علماء التراث الإسلامي كخلاصة لكل كتابه.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

أسلمة علم النفس، الشخصية الإنسانية، الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، محددات الشخصية في التراث.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

[مؤلف هذا الكتاب هو نفسه كاتب هذا المَسرد (البيبلوغرافيا) ويرجو أن يقدم له الآخرون ملاحظاتهم عنه].

❑ ❑ ❑